من صميم الحياة

الحزين الباسم

بقلم ضمير

لم يكن صديق سامح بالرجل حليف الهموم والاكدار ، ولم يحدث أن رأيته مرة إلا مشرق الطلعة منبسط الأسارير ، لا تكاد الابتسامة تفارق شفتيه فى الأحوال الطبيعية . فكان مثالا طيبا للرجل الذى قنع من الحياة بما أعطته إياه ، راضيا بما وهبته له .

ولم أكن أعرف من ماضيه شيئا إلا أنه تخرج من المدرسة الحربية برتبة " ملازم " ، وظل يرتقى حتى وصل إلى رتبة "اليوزباشى" .

وكنا نتردد على مقهى صغير نادر الزبائن جعله الأدباء والفنانون منتدى لهم ، يجتمعون فيه فى المساء فيتناولون فيه أحدث الأفكار ، والتعليق على الأخبار .

دخل "سامح" فى زمرتنا باعتباره محبا للأدب مريدا للفن ، وسرعان ماتوثقت بيننا و بينه أواصر الصداقة ، وكان يميها بما امتاز به ذلك الضابط من حلو الحديث ورقة الطبع وسمو الأخلاق . وأكثر من هذا فقد كان لغيبته عنا التى كان واجبه يدعوه إليها أحيانا ، أثر عميق فى نفوسنا كثيرا ماتكون نتيجته أن ننصرف الى بيوتنا مبكرين . ولا نكاد نراه بعد ذلك حتى نستقبله بعاصفة من الأسئلة الممزوجة بفرح صبيانى ، وعاطفة صادقة . فكان يقابل كل هذه المظاهر بابتسامة تجلى رائعة ، ترتسم على شفتيه فى هدوء و بهجة واطمئنان .

وفى إحدى الأمسيات ، كان اليوزباشى سامح يقص علينا بابتسامته التى تتربع وسط طلعته ، إحدى قصصه اللذيذة التى وقعت له أثناء النهار ، والتى لا تكاد تنتهى إلا بنكتة يضج لها الحضور بالضحك والإغراق فيه . وكان أكثرنا ضحكا الزميل "ضيف" الذى كان على عكس صاحبنا سامح ؛ فهو فى جلسته خير من يمثل الرجل المتشائم من الحياة ، الساخط على كل ما فيها ، حتى لقد اقترح أحد الزملاء أن يعرض الزميل " ضيف " فى متحف "اللوفر" ليمثل بجلاء تمثال " التبرم " . فلو لم تكن أحدوثات سامح من الطرافة والنكتة بحيث تنبسط

لها أسارير " ضيف " لما أمكن لمخلوق أن يخرجه من سخطه ، أو ينتزعه من صومعة التشاؤم والتبرم .

وشاء "ضيف" أن يكون له الفضل الأول فى كتابة هذه القصة عند ما انحنى علىّ وقال بسر فى أذنى "إننى لم أر اليوز باشى سائح" عابسا قط ، بل لم أره يوما وقد زالت الابتسامة من شفتيه ... حقا إن فى العالم أناسا لا يحملون هما ، وليس للدنيا فى نظرهم حساب .... يالله من مجدود سعيد .. " .

لم أشأ أن أعلق على كلام الزميل الحسود بأكثر من هزة مبهمة من رأسى ، فقد فطنت إلى أن "اليوز باشى" قد سمع الهمسة ، فحملق فينا بعينين فيهما ضيق ، وفيهما عتاب ، وابتسامته باهتة ، وتكاد تتلاشى ...

أنصرف الجميع ، وكأن لم يسألنى "ضيف" ما سأل . وفى صباح اليوم التالى طرق باب غرفة مكتبى جندى من جنود المراسلة وقدم لى لأول مرة خطابا من "اليوز باشى سائح" جاء فيه :

صديقى الأستاذ . . .

إغفر لى جرأتى إذ كتبت اليك رسالة تحمل شيئا لا يهمك فى كثير أو قليل ، ولكن من يدرى فقد يكون فيها شيئا تحسه مشاعرك الرقيقة ، فتعيش معى فى جو ربما صلح فى يوم ما لأن يكون مادة طيبة لصحيفتك .

عفوا صديقى إذا كنت قد سمعت برغمى ما دار بينك وبين الأخ "ضيف" من حديث دار حولى ، فوالله لقد اخترقت كلماته أذنى ، إنه يغبطنى على ما أبدو فيه من بشر ومرح ، ويحسدنى على ما أنا عليه من هناء وسعادة ، ولكن هل تحقق من صدق هذه السعادة التى يرانى فيها ؟ وهل هى سعادة من تمتع فى حياته ونال ما اشتهى ؟ أهى سعادة صحيحة ؟ أم هى سعادة زائفة لا تحمل من الحقيقة أكثر من اسمها ؟ قد تكون كذلك . فقد ترى إنسانا ضاحك السن منبسط الوجه ، تدوى قهقهته فى الأرجاء . لكنك إذا فتشت عن قلبه الذاوى بين ضلوعه النخرة ، وجدت قلبا مكلوما مثقلا بالحزن والألم . فيالله من سعيد ! ! سأقص عليك قصتى يا صديقى لترى مدى سعادتى بنفسك ، ولتقف على حقيقة أمرى :

كان والدى من أولئك الذين ترك لهم أهلهم الحبل على الغارب فأساءوا إلى أنفسهم بقدر ما أساءوا إلى غيرهم ، كان ذكيا مفرط الذكاء متلافا مبذرا ، لا يهمه من الدنيا سوى اجتلاء محاسنها ، وتذوق مفاتنها .

أما والدتى فكانت سيدة طيبة القلب ، ساذجة ، لا تعرف من أمر الدنيا أبعد من عتبة بيتها . نشأت على التربية والتقاليد القديمين ، ودرجت بين أهل لا يعرفون شيئا أقدس من الشرف أو أسمى من الفضيلة .

تقدم والدى لخطبة والدتى فرحب به الجميع لما بين العائلتين من تقارب فى الوسط والمركز . ولما امتاز به والدى من ذلاقة لسان استطاع بها أن ينتزع موافقة أهل والدتى السذج طيبو القلب .

لم يمض أسبوع واحد على يوم الزفاف حتى انقلب الزوج المهذب كريم المحتد ، إلى سوقى وضيع ، يغضب لأتفه الأسباب ، ويصيح لأبسط الغلطات . فأحال جنة زوجته التى كانت تتمتع بها فى منزل أبويها جحيما لا يطاق فى منزل الزوجية . ومع ذلك فقد صبرت المسكينة ولم تبد تأففا ولا تضجرا ، بل لم تجرؤ على ذلك يوم أن رأت زوجها يجىء إلى البيت بعد منتصف الليل مخمورا ، تفوح منه رائحة الخمر ، وقد استند إلى سواعد أصحابه وجلسائه فى وكر الشيطان . فكان كل ما فعلته أن جلست فى سريرها طول الليل تندب حظها وتذرف الدمع فى صمت وسكون ، خشية أن يتنبه "السكران" فيغضب .

تكرر الموضوع واسترسل الزوج فى غيه غير مبال بما كان يصبه عليه رئيسه من اللوم والتأنيب لتأخره فى الصباح ولإهماله فى عمله . ولكن صاحبنا كان مستهترا لا يبالى أرضى عنه رئيسه أم غضب ، وسواء عنده أن خرج من عمله أو ظل فيه ، فالأعمال كثيرة ، أما الملذات فيجب أن يغتنم منها الشئ الأكثر .

لم تستغرب الزوجة من زوجها أنه كثيرا ما يتغيب يوما ويومين وثلاثة عن منزله ، فقد تعودت منه ذلك حتى أصبح ذلك شيئا عاديا مألوفا لديها . ولكن ما أثار دهشتها ، أن تغيب الزوج أسبوعا لم تعرف له فيه مقرا ، ولم تكن قد أخبرت ذويها من قبل بتبدل طباع زوجها معللة النفس بأنه سيرتدع فى يوم ما ، ولكن مجىء والدتها لزيارتها ، ثم ما لاحظته الأم على ابنتها من هزال وضعف بادين ، أخرجها من صمتها .

سألتها السبب ، فحاولت أن تظهر أمامها بمظهر السعيدة ، ولكنها كما قلت كانت ساذجة طيبة القلب ، فسرعان ما كذبتها حركات وجهها واضطراب صوتها . فما زالت الأم بها حتى عرفت منها الحقيقة ، أو ما يشبه الحقيقة ، فغضبت وثارت وظلت فى البيت حتى أتى الزوج ذات ليلة يترنح من نشوة الخمر ويتمايل يمينا وشمالا . انبرت له الأم بعاصفة من اللوم والتأنيب ، ولكن صاحبنا كان سابحا فى غيبوبة فلم يفقه لكلامها معنى ، ولو كان منتبها لما فقه كذلك ، وأخيرا تحامل على قدميه وذهب الى سريره وأغلق عليه الباب ، ولم تملك الأم التى

تحب ابنتها والتى تحرص على سعادتها أن طيبت خاطرها بكلمتين أملاهما الموقف فيهما مواساة ، وفيهما أمل ، وذهبت إلى بيتها تاركة ابنتها بالرغم منها مؤملة أن تنصلح الأمور وتتعدل الأحوال ، فيهتدى الزوج الضال . لكنه لم يرعو ولم يرتدع أكثر من يومين عاد بعدهما ليذيق زوجته من أخلاقه علقما . ولم تستطع المسكينة أن تلجأ إلى ذويها ، فهى تعلم أن تقاليد الأسرة لا تسمح لإحدى فتياتها أن تغضب من زوجها ، فعليه الأمر وعليها الطاعة . وكان الدافع الأكبر لسكوتها المحض أن شعرت بأعراض الحمل ، ووجدت فى ذلك رباطا ليس من السهل العبث به .

احتملت الآلام شهورا بلغت فيه روحها الحلقوم ، وكأن لم يكفها ما عانته ، فأبت الأقدار إلا أن تضع وليدها بالآلام المبرحة التى لا تحتمل ، ولكن كيف لا تحتمل الآلام الجسمانية ، وفى آلامها النفسية الشىء الكثير؟

مضى عام على مولد الطفل ، استطاع فيه الزوج أن يسلب زوجته جزءا كبيرا من حليها ، بعد أن طرد من عمله ، ليقامر بثمنها وينفقها على خلانه من عشاق بنت الحان . ولم يجد عناء ولا كبير مشقة فى الاستيلاء على حلى الزوجة النقية السريرة ، فيكفيه أن يتلاعب بعقلها بكلمتين من قاموسه — الذى يكسب الباطل حقا ويلبس الحق زورا — كى تسلم له المنكودة .

كان مجىء الطفل عزاء للزوجة تتسلى بمداعبته والعناية به ، كما كان أيضا شؤما عليها ، فقد وثق رباطها ولم يجعل لها أملا فى الفكاك من هذا الجحيم .

استعرت نار الجحيم وزاد أوارها عندما رأت الزوجة زوجها فى ذات يوم يكشف عن ذراعه ليحقن نفسه بمادة مخدرة استطاعت أن تقرأ على زجاجاتها كلمة " مورفين " وكانت هذه المادة السامة قد انتشرت فى مصر فى وقت من الأوقات وكان صاحبنا فى طليعة المتلهفين ، فلا تكاد يده تمتد إلى المرتب الذى فرضه له والده شهريا بعد فصله من عمله إلا ويهرع إلى تاجر السموم يقدمها له ليتناول بثمنها المخدر . وكان اذا مر وقت ولم يتناول المخدر أو امتنعت زوجته عن اعطائه بعض ماتبقى من حليها انهال عليها سبا ويكاد يهم بالاعتداء عليها لولا بقية من تهذيب أو ما لست أدريه ، فقد يكون لمنظر الزوجة المسكينة ، وهى تتوسل اليه وترجوه أن يقلع عن إدمانه ولو من أجل طفله ما يرجعه عن إيذائها ، فهو إذا امتنع عنه المخدر يصبح مجنونا وأى جنون ، انه جنون مدمر ، متوحش ، ثائر . يحطم كل ما تصل اليه يداه ، وأظنه لو طال طفله الصغير وقتئذ لمزقه فى شدة هياجه . وما أن يأخذ المخدر حتى يهدأ ، ويحس بنشوة تهدئ أعصابه ، فيخمد بريق عينيه وتتضاءل نظرتهما

رويدا رويدا ، فيظل جالسا بالساعات مغشيا عليه لا يفيق إلا ليبحث عن المخدر من جديد . فاذا أفاق ولم يجد ما يحتمل به على بغيته امتدت يده خلسة إلى الأشياء الثمينة فى البيت ، فينسل خفية ليبيعها أو يرهنها ليحصل بثمنها على ما يريد . فاما استنفد كل ما فى البيت ، عرج على صيوان الملابس فباع ملابسه ولم يتورع عن بيع ملابس زوجته كذلك ، و بالجملة لم يترك فى البيت شيئا يسهل حمله ذا قيمة إلا وأتى عليه . بل لقد حاول يوما أن يخدع زوجته باغرائها لكى تأمر الخادم باخراج سجاجيد المنزل لتنظف فى السطح ، وكان يقصد بهذه المناورة المكشوفة طبعا أن يسطو عليها و يبيعها .

وأمام كل هـذا فاض صبر الزوجة ولم تجد مندوحة من الالتجاء إلى ذويها لحمايتها من رجلها السكران . ولكنها رجعت مع ذويها لكى تجـد كل الأوانى النحاسية مباعة ، وكأنمـا الزوج قد أحس بما تدبره زوجته فولى الادبار تاركا طفله وزوجه تحت رحمة الأقدار ، فهى تحمل طفلا صغيرا على صدرها ، وفى يدها اليمنى ولدها الأكبر .

إلى أين تذهب هذه المسكينة بطفليها الصغيرين ؟ ألى بيت والدها الذى انتقل الى رحمة الله ولم يترك شيئا يذكر فقـد أنفق معظم ثروته على المضايف والولائم ؟ أم الى بيت أمها التى تملك إيرادا بسيطا ؟

أتذهب لتقاسم أمها هذا النخل المتوسط وهى الأبية ذات النفس العالية ؟ أم تذهب إلى أهل زوجها تشكوه اليهم وتبسط لهم حالها ؟

ظلت المسكينة ساهرة بعد أن فارقها ذووها وهم يشددون عليها بأن منازلهم مفتوحة رهن اشارتها ، وأنها مهما طلبت من شيء فهم على استعداد لتلبية الطلب . ولكن أهم جادون حقا فى عرضهم هذا ؟ انه عرض يتشابه كثيرا مع من يرى شخصا يكاد الجوع يقتله ، فيقول له : أأنت جوعان حقا ؟ إذا كنت كذلك فاطلب ما شئت ، فإننى رهن أمرك .

* * *

ذهبت إلى منزل شقيق زوجها الأكبر ، وما أن وطئت أقـدامها باب المنزل العام حتى تصورت نفسها وهى تعرض قضيتها أمام أقارب زوجها ، ورأت فى ذلك جرحا لإحساسها واهانة لكبريائها ، ونوعا من أنواع الاستجداء المقنع لاتقبله بأى حال . فنكصت ثانيا وارتدت إلى منزلها حزينة حيرى .

ماذا تعمل ؟ وكيف تعيش ؟ ومن أين لها المـال لتربى ولديها ؟ أتنتحر ؟ لمن تترك طفليها ؟ وأخيرا وبعد تفكير طويل أسعفتها والدتها بالجواب فعرضت عليها أن تقاسمها عشها ، وهو

يكفيهم جميعا ويزيد، لو ساروا فى حياتهم سيرا متواضعا. وبعد حوار طويل أمكن للأم أن تصحب ابنتها وحفيديها إلى منزلها يتقاسمون فيه العيش ويمضون فيه حياة متوسطة هادئة.

* * *

مضت الأعوام تلو الأعوام والزوجة الشابة الجميلة ترد الراغبين فى زواجها وتقطع أملهم من ذلك لا لشىء إلا لكى تتفرغ لتربية ولديها بنفسها، ولكيلا تعرضهما لطغيان الأزواج الذين يرون فى أولاد زوجاتهم دخلاء عليهم يقتطعون من رزقهم ماليس من حقهم. وكان فى امكانها أن تتزوج رجلا ذا مركز عظيم محترم ولكنها رفضت السعادة التى تقدم اليها فى ظروفها هذه، بل كادت تثور عند ما تكرر الطلب، فأولادها فوق كل شئ، ولن تفرط فيهم مهما حدث، ولن تتوانى عن السهر عليهم مهما فعلت الأيام.

وظلت على عهدها هذا تحرم نفسها ملذات الحياة المعروضة عليها فى كرم وسخاء، لتوفر لأولادها السعادة التى حرمت منها.

ومضت سنوات كبر فيها الابن الأكبر فألحقته بإحدى المدارس، وكأنما الطفل الصغير قد أدرك بفطرته ما تعانيه أمه فى سبيله من آلام نفسية هائلة كى توفر له السعادة والهناء فاجتهد واستمات فى سبيل العلم حتى كان دائما أول فرقته، وكان موضع فخر أمه وسلوتها.

وكان صورة من طباع أمه السامية وشمائلها العالية، عندما كان يسعى جهده كيلا يكلف أمه شيئا يرهقها، فهو يتفوقه فى المدرسة اكتسب المجانية، و بتقتيره على نفسه أمكنه أن يدخر مبلغا حصل به على ملابس له. ولا تسل عن دهشة الأم عند ما دخل عليها طفلها ذات يوم يحمل لفافة الملابس التى اشتراها بمصروفه اليومى المدخر، والى جانبها هدية متواضعة لأمه، ولكنها بكت، أجل بكت من حنان ابنها، وهى التى لم تلق الحنان عند زوجها الغادر. ولم يملك الطفل أيضا إلا أن يبكى تأثرا وانفعالا وتبكى معه أمه ويمعنا فى البكاء.

* * *

شب الصبى لا يعرف له أبا، وقد كان يسمع الأطفال فى أحاديثهم يذكرون أباهم الذى أحضر لهم كذا وكذا من هدايا آخر العام، فسأل نفسه: وأين أبى ولم لا يحضر لى الهدايا؟ وكرر السؤال على أمه، فقالت له وهى تكتم أنات القلب الجريح: لقد مات أبوك فترحم عليه. وكفى الطفل ما رآه على وجه أمه من ألم لكى لا يكرر سؤاله أو يستزيد من المعرفة.

أما أقاربه فقد كفاه منهم ما رآه من أحدهم وهو العم الأكبر إذ صادفه يوما يسير فى الطريق منتفشا كالديك الرومى وكان الطفل آيبا من المدرسة ، وما أن لمحه العم حتى أشاح عنه بوجهه ومضى ، وكان الطفل قد هم بمصافحة عمه الذى تصادف أن رآه مرة أو مرتين. ويذكر الطفل أنه لم ينم تلك الليلة وظل مسهدا تتكشف له الدنيا عن آفاق جديدة من طبائع البشر وأخلاقهم . ويذكر جيدا كيف أن والدته قامت مذعورة على صوت بكاء ولدها فى الليل ، وهرعت اليه متسائلة ، فأخبرها بالسبب ، فطيبت خاطره ودعته للنوم ، ولكنها ذهبت إلى غرفتها لكى تبكى طول الليل ، ولم يكن هـذا الليل الساكن الهامد إلا مذكيا فى نفسها الذكريات الأليمة ولا سيما ما رواه لها ابنها فأصاب الموضع الحساس من قلبها ، موضع الألم العميق والحزن الجارف .

وقد كان لضمير الصبي وألم أمه الجارف أكبر الأثر فى جده واجتهاده ، فظل مثابرا مجدا مجتهدا يحاول ما استطاع أن يخفف من آلام أمه ويبدلها حبورا ومسرة بقدر المستطاع وظل يتقدم ويجد ويجتهد حتى ظفر بالبكالوريا بدرجة ممتازة جدا فأخذت الحكومة على عاتقها أن تعلمه فى الدور العالى بالمجان فاختار الكلية الحربية وظفر باجازتها ، ولا تسل عن فرح أمه التعيسة التى لم تعرف الفرح من قبل يوم أن ازدان كتف ولدها بالنجمة الذهبية اللامعة ، ولا تسل عن فرح الشاب عندما نجح لا لشيء الا لأنه تأكد من مقدرته على توفير السعادة والهناء لأمه وجدته وأخيه .

حقق لها كل ما كان يعدها به وهو طفل من الوعود الساذجة وعمل جهده حتى أعاد لها بسمتها التى فقدتها منذ ولجت بيت زوجها وأعاد الى نفسه البسمة التى كان زملاؤه فى المدرسة لا يلمحونها على شفتيه الا نادرا .

وذات يوم عاد الزوج بعد أن قرأ خبر ترقية ابنه الى رتبة اليوز باشى وتحدثت الصحف بكفاءته ومهارته النادرة ، عاد الرجل يجر اسمالا قذرة يرتديها ويسميها ملابس ، عاد ليذكر المرأة الفاضلة بمأساتها فى الماضى ، ويفرض عليها ايواءه فى منزل ولده ، ولكنها وقفت تدافع عن فتاها الذى لا يتصور أن له أبا كهذا الأب الباغى فهو يعتقد أنه قضى واستراح ، ولكنه لم يكترث بتلك الأقوال ، وأخذ يخبرها بوقاحته المعهودة بأن له كل الحق فى أن يتمتع مثلها بنقود فلذة كبده . وأراد الله ان يحضر الابن فى هذا الوقت وأن تخترق كل الكلمات أذنه قبل أن يراه ، فيقف بنفسه على حقيقة مرة ظلت عشرين عاما فى طى الكتمان .

لا يدرى اليوز باشى ما هو الشعور الذى سيطر عليه فى ذلك الوقت ، ولكنه كان أقرب إلى الاشمئزاز منه الى أى شيء آخر . قام الرجل واقفا عندما رآه يدخل واقترب منه ،

ولكنه عاد فتكمش عند نظرة الابن المخيفة، ذلك الابن الذى لم يقو على النظر الى أمه المرتعدة الشاحبة الا عندما سمع صوت جسدها الرقيق يسقط بقوة على الأرض بغتا بجانبها يستعطفها ويخاطبها بأرق الكلمات . وعندما أفاقت أرادت أن تشرح له الموقف فمنعها من ذلك وأفهمها بأنه قد سمع كل شيء. ولم يفعل بعد ذلك أكثر من أن يرمق هذا الذى قدر له أن يكون والده بنظرة عجلى باهتة، فيها معنى رائع من معانى الزراية والاحتقار ، ثم قال له :

"سيدى: إننى أعرف أنك لاتستحق حتى هذا الاسم. ومع ذلك فليس هناك مايمكننى أن أناديك به غيره مع الأسف ، ولذلك فانى أقول لك ياسيدى بأننى أمام تأخر الوقت سأمنحك فرصة للبيت فى هذه الغرفة التى تبقى فيها، حتى إذا أتى الصباح غادرت هذا المنزل من فورك. و إلى غير رجعة؛ بعد أن أزودك بالمال الكافى لشق طريقك فى الحياة على صورة شريفة" ثم تركه فى الغرفة وخرج بوالدته .

وفى صباح اليوم التالى قام اليوزباشى مبكرا ليتفق مع الرجل على الرحيل قبل أن تستيقظ أمه، ولكنه كان قد اختفى ومعه أنفس فضيات المنزل . فدخل على والدته فى غرفتها فوجدها ملقاة على ظهرها فاغرة الفم متصلبة العضلات، وقد عرف آخر الأمر أنها قد أصيبت بمرض عضال بعد أن شاهدت زوجها فى المساء يتسلل الى غرفتها ليختلس حليها .

* * *

لعلك ياصديق تكون قد فهمت من هذه القصة أننى ذلك الابن المنكود ، كما تكون قد لمست فيها بذاتك مقدار ذلك الألم القاتل الذى يعتمل وراء تلك الابتسامة التى أزورها على فمى دائما تحت ستار من المرح الزائف ، والتى يحسدنى عليها كل السعداء .!!

صديقك

سامح

وانتهيت من قراءة ذلك الخطاب الطويل الأليم فخرجت منه بقصة دامية من قصص الحياة التى تحدث كثيرا فى خفايا المجتمع ، ولم أجد مواسيا لصديق الحزين الباسم غير أن أدون للناس قصته الباكية وأن أقول له ماقال الشاعر :

أحب أضحك للدنيا فيمنعنى أن عاقبتنى على بعض ابتساماتى

سمير